العنوان: المقاربة العلمية للظاهرة الدينية
المصدر: أدب ونقد - مصر
المؤلف الرئيسي: الاخضر، العفيف
المجلد/العدد: ع 170
محكمة: لا
التاريخ الميلادي: 1999
الشهر: أكتوبر
الصفحات: 11 - 32
رقم MD: 281922
نوع المحتوى: بحوث ومقالات
قواعد المعلومات: AraBase
مواضيع: الديانات القديمة ، علم النفس ، الشعائر الدينية ، التحليل النفسي ، اليهودية ، النصرانية، فرويد ، سيجموند ، العلماء النفسانيون، الموت ، الخلود ، الاساطير ، الروح ، الهندوس ، الظاهرة الدينية
رابط: http://search.mandumah.com/Record/281922

المقاربة العلمية للظاهرة الدينية

العفيف الأخضر

وضعت الثورة العلمية الحديثة المتواصلة بين أيدينا ترسانة هائلة من المعارف المتنوعة تتيح لنا الرصد العلمى للظاهرة الدينية المعقدة والعريقة تاريخيا والبالغة الحساسية لأنها ترتبط برغبات لاشعورية عارمة ومتأصلة فى الشخصية النفسية للإنسان الذى يحاول أن يعطى بها لحياته معنى.

تعقيد الظاهرة ، عراقتها وحساسيتها جعلها خاصة فى الفضاء العربى الاسلامى لغزا قلما قاربه الباحثون مقاربة علمية . فى غياب هذه المقاربة ساد الطرفان المتطرفان : النقد السطحى والتقريط الدعائى .. وقد آن الآوان لأن تقاربها مقاربة / موضوعية لا مدعاة فيها للمدح أو للقدح بل للفهم العلمى ما أمكن ذلك عندما نقارب الظاهرة الدينية بمفاتيح التحليل النفسى، بسوسيولوجيا الأديان ، تاريخ الأديان المقارن ، الانثروبولوجيا ، الفيلولوجيا ، الالسنية ، وعلوم ما قبل التاريخ التى تعرف اليوم ثورة غير مسبوقة فإننا نتعلقها عندئذ على نحو عقلانى لا يترك مجالا يذكر للفكر الأسطورى المحلق بجناحين سحريين فوق التاريخ ويفتح الطريق للتفكير العلمى المحكوم بمنطق : لا شئ يأتى من لا شئ.

ساقتصر هنا بسبب ضيق المساحة على مفتاحين من مفاتيح حل ألغاز الظاهرة الدينية هما علم نفس الأعماق وتاريخ الأديان المقارن لمساعدة القارئ على فهم أفضل لهذا الكتاب النفيس.

الإضاءة النفسية للظاهرة:

الرموز الدينية تحولت على مر العصور إلى وقائع اجتماعية تعيد تنظيم ادراك الإنسان لمحيطه وعالمه لانها تلبى آمالاً وحاجات عميقة فى بنية النفس

الانسانية هيكلت الجهاز النفسى البشرى ، ووراء نشأة المقدس الذى يعود إلى ليل التاريخ، يكمن هذا الجهاز النفسى الكونى المسكون بالشعور بالذنب إزاء الأب ، بالعصاب الاستحواذى الجماعى، بالرغبة المتأصلة فى نيل حب الأب وحمايته واخيرا الرغبة فى الخلود.

الشعور بالذنب : أن تخطئ فى حق الآخرين وتشعر بالندم فتحاول إصلاح خطأك فذلك هو الشعور الصحى بالذنب الذى يشهد على أن ضميرى الأخلاقى معافى لأنه ما إن وعى أنه انتهك أمراً أخلاقيا حتى سارع إلى إصلاح خطيئته . أما أن تشعر أنك مثقل بالذنوب دون أن تقترف خطيئة فذلك هو الشعور العصابى بالذنب الزائف العائد إلى الخطيئة التخيلية فى حق الأب الذى توهمت أنك قتلته أو فكرت فى قتله خلال المحنة الأوديبية فى الصراع معه على الاستئثار بالأم. خطيئة القتل الوهمية فى الطور الأوديبى وقعت فعلا حسب فرضية فرويد المعقولة رغم أنه لم ينهض عليها دليل / انثروبولوجى عن قتل ابناء القطيع البدائى لابيهم الذى حّرم عليهم نساءه . لا شك أنهم بعد اقتراف جريمتهم وقعوا ضحية شعور ساحق بالذنب فحاولوا طلب الغفران بتخييل أن أباهم القتيل حى يرزق فى السماء وبالاعتقاد فى قداسة نهيه عن سفاح المحارم .

فى الثمانينات تم اكتشاف هائل فى حديقة الحيوانات اللندنية الشامبنزى هو الوحيد بين جميع القرود الذى لا ينزو على أمه ، والقرابة الجينية بينه وبين الانسان وثيقة جدا جينان فيما القرابة بين الحمار والفرس أربع جينات ومع ذلك قد ينجبان البغل. الوصايا العشر من منظور فرويدى تلخيص مكثف لدروس المحنة الأوديبية التى اكتوى بنارها الإنسان فى ليل التاريخ : لا تقتل (أباك) لا تزنى (بأمك) . ولو لم تكن هاتان الجريمتان ، يقول فرويد ، قد وقعتا مراراً فلماذا هذا الالحاح الاستحواذى على تحريمهما وتشديد النكير على من يقترفهما ؟ يعتقد فرويد أيضا أن إرهاب نكاح المحارم هو الذى أسس تحريم الزواج من داخل العشيرة لدى البدائيين. الشعور بالذنب ، بالخطيئة الأصلية فى حق الأب القتيل تستوجبي الفداء: طلب الغفران وهذا يستوجب بدوره طقوسا مقدسة إذن صارمة.

العصاب الاستحواذى : الشعائر التى أقيمت منذ أقدم العصور سواء فى

السحر أو الديانات البدائية من رقص طقسي واغتسال شعائري وطهارة وحركات وسكنات رتيبة تعبير عما أطلق عليه علم نفس الاعماق الفرويدي العصاب الرهابي الاستحواذي الجماعي. الرهاب هلع مقدس من ارتكاب الخطيئة المميتة يحاصر أفكار عبدة وثن ما أو إله ما بشعائر قهرية لا حيلة لهم فيها ويعبر عن نيتهم النفسية العصابية كدفاع ضد الجنون الذي سيصيبهم إذا ما تخلوا عن هذه الطقوس التعبدية التي لا مبرر منطقيا لها . هذه الشعائر تغطي جميع الأنشطة المقدسة- وجميع الأنشطة مقدسة- لدى القبائل البدائية من صيد بحري وبري وزراعة وحصاد وزواج وختان وموت فضلا عن عبادة الآلهة بحيث لا يمكن أن توجد ممارسة للمقدس بدون شعائر.

الرغبة في أب عطوف وحام:

ألتقى الرحالة والأنثروبولوجيون بقبائل بدائية لم تفارق بعد مرحلتي الجني والصيد ومع ذلك متدينة أي تقوم بالشعائر وتؤمن بالخلود في حياة ثانية بعد الموت كعزاء عن بؤس هذه الحياة. فكيف آمنوا بالدين وهم ما زالوا في مرحلة ما قبل الكتابة ؟ على هذا السؤال يحاول علم نفس الاعماق الفرويدي تقديم مشروع إجابة . يرى فرويد أن الشعور الديني بما هو شعائر، عبادات ومعتقدات تنظيم علاقة الإنسان بما فوه- الطبيعة (مقدس ، الهة ، إله) متجذر في اللاشعور لان وظيفته النفسية هي تقديم العزاء للإنسان الذي يواجه قسوة الطبيعة على الإنسان ، قسوة الانسان على الانسان وقلق الموت . العزاء الديني يلبي رغبة عتيقة تسكن أعماقه في مقدمتها رغبته طفلا في نيل حب وحماية أب ودود وقوي . قبائل الاسكيمو تنادي معبودها باسم الأب وكذلك يفعل المسيحيون.

شرط الإنسان البالغ الهشاشة نفسيا واجتماعيا يؤهله إلى البحث عن ملاذ أبوي يلوذ به كلما ألمت به الشدائد . نعرف من المعاينات الانثروبولوجية. إن بعض القبائل الهمجية لا تقبل على القيام بالشعائر الدينية إلا إذا واجهت كارثة طبيعية تعيدها إلى شرط الطفل المحتاج إلى حماية أبوية عساها تخفف عنه بلواه . هذه الرغبة في الحب والحماية التي تسكن الانسان من المهد إلى اللحد ومنذ ليل التاريخ إلى الآن دفعته على مرّ العصور إلى عبادة آلهة شتى واعتناق ديانات لا تحصى قاسمها المشترك : تقديم العزاء الرمزي له: وعد بالخلاص ، يسميه فرويد وهما ، ليس بمعنى

الادراك المغلوط للحقيقة بل بمعنى الاعتقاد القائم على تحقيق الرغبة ، إذ نسمى وهما ، يقول فرويد ،معتقدا ما عندما يكون تحقيق الرغبة عاملا أساسيا باعثا عليه ، فالوهم هو بديل لذيذ عن حقيقة مريرة لذلك هو دائما فى قطيعة مع الواقع لانه تحقيق لرغبة لا شعورية لا علاقة لمنطقها الوجدانى بالمنطق العقلانى ، الوهم على علاقة وثيقة بالفكر السحرى الذى يعتقد أن بامكانه إرغام الواقع على إنتاج آثار متناقضة لقوانينه - لهذا السبب كان البدائى يهتدى بالأساطير التى تسليه لا بالافكار لانها تتجاوب مع رغبته فى التجذر فى المحلى فى الانفتاح على الكونى ، فى التسمر فى ذاكرته الماضوية لا فى التطلع إلى مشروع مستقبلى. هذه حال البدائى أو ذىّ التفكير البدائى من المعاصرين . لكن فرويد يلاحظ أن إنسان الحضارة هو أيضا كسلفه البدائى يرنو إلى عزاء الملاذ الوهمى الآمن . كيف ؟ ذلك أن الحضارة بما هى حياة مشتركة فى ظل مؤسسات بالغة التعقيد والانضباط تتطلب ، حفاظا على بقائها ، قمعا للرغبات العدوانية واللااجتماعية Antisociales المتأصلة فى البنية النفسية . قمعها يؤجج مشاعر الاحباط التى تتطلب تعويضا رمزيا ، ملاذا وعزاء . الدين ، يقول فرويد ، يقدم تبريرا مقبولا لتخلى الانسان عن غرائزه العدوانية ويضفى عليها دلالة نبيلة.

الرغبة فى الخلود : عزاء مثالى لانها تستجيب لرغبة عميقه وعتيقة كما تؤكد ذلك علوم ما قبل التاريخ يقول إيف كوبنس Copens. استاذ البالونثولوجيا فى الكوليج دوفرانس« شرع الانسان يدفن موتاه تسهيلا لرحلتهم إلى عالم آخر منذ خمسين ألف عام »،أى فى العصر الاحيائى السحرى.

أثناء دراسته لخصوصية اليهودية التاريخية التى تميزها عن المسيحية ، المشتقة منها مع ذلك ، قدم فرويد فرضية معقولة عن سر عجز الديانة اليهودية عن الارتقاء من منزلة الديانة القومية إلى مصاف الديانة الكونية على غرار المسيحية : «استبعدت اليهودية ،كما يقول بعناية التذكرات الانسانية المبهمة (للخطيئة الأصلية) وربما لهذا السبب فقدت اعتبارها كديانة كونية ». لم تستبعد اليهودية ذكريات الخطيئة الأصلية خطيئة قتل الأبناء للأب فى القطيع البدائى (انظر كتاب الطوطم والمحرم لفرويد) التى

تأسست عليها بالمسيحية انطلاقا من الام صلب الاب الرمزي المؤسس وحسب بل واضافت إلى ذلك أيضا استبعاد الوظيفة الاساسية لكل دين يطمح للكونية : تقديم العزاء لمعتنقيها بالأمل في حياة ثانية : « مما يلفت كليا الانتباه ، يقول فرويد، إن نصوصنا المقدسة لم تقرأ حسابا لحاجة الإنسان إلى الاطمئنان إلى أن حياته ستتواصل بعد الموت(...) أريد أن أضع هذا العنصر ضمن العناصر التى جعلت من المستحيل على اليهودية أن تحل محل ديانات العصور القديمة بعد سقوطها » . لا تختلف اليهودية فى هذه النقطة عن بعض الديانات القديمة التى لم تقرأ حسابا للخلود فى ملكوت السماوات كالديانة الرومانية التى كانت ضامنة لانتصارات الشعب الرومانى فى حروبه لكنها لم تضمن لكل فرد رومانى الخلاص لروحه فى حياة ثانية.. بدوره لم يعر يهوه ، إله بنى إسرائيل القومى ، اهتماما للخلاص روح الفرد اليهودى بعد الموت بل اهتم حصراً بحماية شعبه المختار . وهكذا لم يستطع إغراء النفوس المسكونة بالخلود بالدخول فى دينه الاثنى المركزى المغلق دون غير اليهود.

إذا كان الانسان شرع منذ خمسين ألف عام يدفن موتاه تسهيلا لرحلتهم إلى عالم آخر ، عالم الخلود ، حق لنا أن نتساءل لكن من أين جاءته فكرة خلود الروح المدماك المؤسس للميتافيزيقيا الغربية كلها؟ هذه الميتافيزيقية ليست فى الواقع إلا تنظيرا لاهوتيا- فلسفيا متأخرا جدا لرغبات إنسانية عتيقة وقع التسامى بها على نحو متقن فى مقولات فلسفية.

تخييلات الإنسان البدائى عن الخلود تعود دون شك إلى الطور الاحيائى الذى هو فى حدود معلوماتنا الراهنة الطور الأول فى مسار الإنسان الروحى الذى تجسد أولا فى الاحيائية ثم فى المعتقدات الاسطورية ومتأخرا فى المقولات الميتافيزيقية الافلاطونية وبعد ذلك فى المسيحية.

كيف توصل الإنسان البدائى إلى الاعتقاد فى وجود الروح؟ يبدو أنه توصل إلى ذلك فى الطور الأول للاحيائية(الاعتقاد بان كل شئ فى الكون مسكون بالحياة) من خلال عملية التنفس وتجربة الاحلام . بالنسبة للانسان المعاصر النفس مادى . مجرد تبادل للأوكسجين الذى نستنشقه والغاز الكربونى الذى ننفثه - لكن الأمر لم يكن بمثل هذه البساطة عند الإحيائى . بالنسبة له النفس (ومنه أشتقت النفس) روحى . وبعد الموت ينفصل عن الجسد ليرحل إلى عالم آخر . تقاليد بعض الشعوب البدائية تقتضى أن

يسجى الميت على ظهره لمساعدة الروح على الخروج من الفم : يقول مرسيا إلياد الاخصائى فى تاريخ الأديان : عند قبائل ناسكابى ، الهنود الحمر الصيادون بكندا ، الروح لطيفة (صغيرة الحجم) وتفارق الجسد عن طريق الفم، بعض الشعوب البدائية تعتقد أن الروح تسكن القلب ، فى الفرنسية القلب مرادف للروح، ألا يتوقف القلب عن الخفقان بعدما تفارقه الروح بالموت؟ ويعتقد الهنود أن الروح تفارق الجسد عندما ينام وتعود إليه عندما يستيقظ وتشاطرهم قبائل الناتو الكونغولية نفس الاعتقاد الذى يبدو أنه كان شائعا فى الجزيرة العربية حيث يسود الاعتقاد بان الروح تقبض بالليل وتبعث بالنهار فتعود إلى الجسد وهكذا دواليك إلى أن تفارقه أخيرا بالموت.

الواقعة الاخرى التى أقنعت الاحيائى بوجود وخلود الروح هى الاحلام . لم يكن طبعا بوسعه أن يعرف ما نعرفه نحن علميا عن الاحلام بما هى ظاهرة نفسية ذات مضمون ظاهر لا يكاد يدل على شئ ومضمون خفى هو تعبيرها الحقيقى لكن لا سبيل إلى حل رموزه إلا بالتحليل النفسى وأن هذا المضمون تعبير عن ماضى الحالم أى عن رغباته المكبوتة التى لم يحققها لا عن مستقبله كما يعتقد البدائيون .. لذلك يعتقد الهنود الحمر أن الاحلام هى الغنيمة التى تعود بها الروح من رحلتها بعد مفارقة جسد النائم . وما الاحلام ؟ يجيب الهندى الأحمر : هى الأسرار التى أطلعت عليها أرواح الموتى روح النائم التى حاورتها .من هنا الاعتقاد الشائع عند الهنود الحمر بأن أرواح الاسلاف هى التى تعطى الشرعية للحاكم وهى التى تتحكم فى حياة الاحياء ، وهكذا فمن تجربتى التنفس والاحلام استنتج البدائيون وجود عالم آخر خالد تخلد فيه الأرواح، يقول مرسيا إلياد : اعتقد الانسان الاحيائى فى وجود روحه هو وفى بقائها بعد فناء جسده ثم أسقط ذلك على ما يحيط به من أشياء فنسب لها أرواحا قادرة على التأثير فيه .

التفكير الإحيائى شائع أيضا لدى الأطفال . عندما كنت طفلا كنت أنتقم من الحجر الذى يؤذى قدمى الحافيتين. ونعثر فى الديانة اليهودية مثلا على نماذج منه ففى سفر الخروج (الاصحاح ٢٠- الآيتيان ٢٨-٢٩) يعاقب الثور الذى ينطح رجلا أو امرأة . تحميل التوراة الثور المسئولية الجزائية يعنى أنه ذو روح مسئولة . إذا كان ،كما تقول الاحيائية ، كل ما فى الكون حبى وذوروح فهو قادر تاليا على تقديم الحماية للإنسان إذا استعطفه ،وهكذا


Yousif 99

نشأت عبادة الطبيعة كدين نفعي على غرار جميع الديانات القديمة فالعبادة مغبأة بالاستعطاف أي استجلاب الحب والحماية، في الواقع لم يعتقد الاحيائي في وجود روح واحدة خالدة بل في وجود أرواح يتراوح عددها بين سبع وثلاث عشرة روحا .وهكذا سبق الاعتقاد في تعدد الأرواح الاعتقاد في تعدد الآلهة في المرحلة الوثنية التالية للاحيائية.

لعبة الموت والخلود في المعتقدات والأساطير العتيقة تلقي أضواء على إشكالية خلود الروح في الميتافيزيقا الغربية كما في الديانات التوحيدية . يقول مرسيا إلياد : في الأساطير فراق الروح للجسد يفضي إلى ميلاد جديد ، حيث يغدو الإنسان كائنا روحيا «نفسا» يصبح «روحا».

الرغبات العتيقة اللاشعورية والتخيلات عبرت عن نفسها في شتى اطوار تطور الانسان الثقافي عبر العصور في المعتقدات الاحيائية ، الوثنية وفي المقولات الميتافيزيقية .. في كتابه أسطورة العود الابدي يثبت مرسيا إلياد أن الأساطير القديمة تعلمنا ان كل ما على الارض له نموذجه في السماء . من هذه الاساطير استفتى افلاطون نظرية المثل الافلاطونية القائلة بان عالم المعقولات بعيد المنال هو نموذج عالم المحسوسات قريب المنال والمبتذل. المحسوسات التي تدركها الحواس ما هي إلا صورة باهتة لنماذجها السماوية التي لا تدركها الا العقول : الجمال الماثل امامنا ليس سوى انعكاس باهت لمثال الجمال السماوي والطاولة التي أكتب عليها صورة شاحبة لفكرة الطاولة في عالم المعقولات . فلسفة المثل الافلا طونية التي أسست الميتافزيقا الغربية وثنائية الروح والجسد استلهمها افلاطون من معتقدات بلاد الرافدين الأسطورية. تقول الاساطير السومرية : ما هو موجود على الأرض له مثاله في السماء . مثلا دجلة له نموذجه في نجم أونيت والفرات له مثاله في نجم الخطاف .كما تعتقد بعض الشعوب الجبلية أن لجبالها نماذج في السماء ،في الكوسمولوجيا الايرانية كل ما في الأرض له نماذجه في السماء.

هذه الرغبات التخيلية مسجلة في تاريخ الانسانية النفسي والاجتماعي والتساؤلات التي اكتست صوراً أدبية ميتافيزيقية سامية ومتسامية تعود جذورها في جزء مهم منها على الأقل إلى الجزء اللاشعوري في الشخصية الانسانية.

الاضاءة النفسية للظاهرة الدينية بكل ما لها من قوة تفسيرية ما يبدو

للوهلة الأولى تعاليا وسراً لها هدفان المعرفة أولاً ومساءلة القيم ثانيا لاعادة تأسيسها بعيدا عن البارانويا الفردية أو الجماعية والدوغمائية ويقينياتها المطلقة والمغلقة على كل تساءل، والحال أن العلوم المعاصرة بما فيها الدقيقة تعلمنا ما علمنا إياه- دون جدوى- حكيم سوريا الاعظم ابو العلاء المعرى:

أما اليقين فلا يقين وانما / أقصى اجتهادى أن أظن وأحدسا! .

المساءلة الدائمة للقيم لاعادة تأسيسها لا تنام على حرير يقينيات مرض الجمود الذهنى لذا كانت تاريخيا سر أسرار التكيف مع الجديد وتجديد التجديد وتحديث الحداثة وإعطاء الأولية للعقل على النقل وللصيرورة على أسطورة الأصول وللحاضر والمستقبل على الحنين الاكتئابى إلى الماضى الذى علته صفرة الموت. الاضاءة النفسية لفهم الظاهرة الدينية ومشتقاتها ليست بذات أهمية معرفية وحسب بل أيضا لها أهمية سياسية فى قلب الاحداث التى تدور نصب أعيننا على امتداد أرض الاسلام ،حيث وضعت الأصولية الاسلامية الاستيلاء على السلطة السياسية على جدول أعمالها.

رصد التحليل النفسى اصابة المتعصبين دينيا بالبرانويا بما هى تضخم الأنا مضاف إليه أفكار الاضطهاد. وهذه ملحوظة بقوة فى تصرفات الزعماء الاصوليين الذين يجدون عن شعور منهم أو عن غير شعور في الدين أداة مثالية لتحقيق تخييلات الاضطهاد التى تطاردهم وإرادة القوة التى تسكنهم حسب المنطق البارانوى الهاذى : الناس متآمرون ، متسلطون وأشرار فعلى أن أتآمر عليهم قبل أن يتآمروا على ، أن أحكمهم قبل ان يحكمونى وان اضطهدهم قبل أن يضطهدونى . ألا يشكل هذا الرصد مفهوما تفسيريا لاستراتيجية الحركات الأصولية الاسلامية الممارسة ل« العنف الوقائى» بالفعل وبالقوة؟ بدون هذا المفهوم المفسر لن نستطيع تفسير الجذور النفسية وتوقع العواقب السياسية الوخيمة للنخبوية الأصولية البارانوية التى تجعل من أهل الحل والعقد (الفقهاء) مصدرا لشرعية السياسية بدلا من الشعب السيد أو لعبادة الولى الفقيه يجعله مقدسا فوق المساءلة وفوق الدستور يستمد «شرعيته من الله لا من الشعب» كما قال ناطق نورى اجتراراً للخمينى وجعل نقده مستوجبا لعقوبة الاعدام . وبدون المفهوم التحليلى النفسى عن « الرغبة فى الحكم Le desir de diriger التى هى مزيج متفجر من العصاب الاستحواذى ، البارانويا ، السادية

والاستعراضية ،كما لن نفهم التوتاليتارية الأصولية وكتائب« التبليغ والدعوة » المجندة لخدمتها والذين يقتحمون خلوات الناس لارغامهم على أن يلبسوا ،كما يلبسون ويشربوا كما يشربون ويأكلوا كما يأكلون وان يدخلوا المرحاض بالرجل اليسرى والمسجد بالرجل اليمنى!.

اضاءة تاريخ الأديان المقارن:

تاريخ الأديان المقارن ذو أهمية كبرى لحل ألغاز الظاهرة الدينية المعقدة . بدون تحليل تاريخى لتكونها وتطورها منذ الاحيائية إلى الديانات التوحيدية مرورا بالطوطمية والوثنية لن تفهم فهما تاريخياHistoriciste أى من خلال تفاعلها فيما بينها وتفاعلها مع محيطها الاجتماعى -الاقتصادى وكيفية تبلور تقاليدها وتكون كتبها المقدسة وأساطيرها المؤسسة ودلالات شعائرها النفسية وسيكولوجيا معتنقيها وباختصار تأثيرها فى التاريخ وتأثير التاريخ فيها . هذا هو موضوع تاريخ الأديان المقارن الذى أسسه فى صيغته الحديثة عامل المطبعة السابق جورج سميث الذى أصبح من أبرز المتخصصين فى الآشوريات.

فى سبتمبر ١٨٧٢ حدث ما يشبه الزلزال فى تاريخ الأديان عندما أعلن ج. سميث عن اكتشافه الذى يعادل فى أهميته اكتشاف أن الأرض لم تعد مركز الكون : العثور على الأصل البابلى لسفر التكوين فى بلاد الرافدين ، فقد أنهى لتوه ترجمة الالواح البابلية التى تضم ملحمة بجلجامش المتشابهة حتى فى أدق التفاصيل مع قصتى الطوفان والخلق التوراتيتين مما لا يدع مجالا للشك فى أن العبرانيين قد ترجموا بتصرف خلال السبى البابلى فى القرن الخامس قبل الميلاد الاسطورة البابلية التى سجلت على الطين بالخط المسمارى فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد . بهذا الاكتشاف تهاوت أسطورة أن الكتاب المقدس هو أول نص مكتوب وأنه وحى سماوى.

علم تاريخ الأديان المقارن يدرس أساسا الميثولوجيا التى قامت عليها الديانات الميتة كالبابلية والمصرية مثلا وكذلك الديانات العتيقة التى ما زالت شائعة بين الاحيائيين (٣٠٠ ألف نسمة) والوثنيين المتواجدين فى أربع قارات.

لا سبيل لفهم الديانات السائدة فهما علميا إلا من خلال تحليلها بعلوم الحداثة ومنها علم الأديان المقارن الذى يتيح للنشء فهمها فى سياقاتها

التاريخية مما يساعده على عدم الزج بالدينى فى الدنيوى وبالدين فى السياسة والعلم.

« فهم بنية ووظيفة الأساطير فى المجتمعات التقليدية- كما يقول مرسيا إلياد - لا يساعدنا على الكشف عن حقبة من حقب التاريخ الإنسانى وحسب بل ويساعدنا أيضا على فهم بعض معاصرينا فهما أفضل » لأن النفسية الأسطورية والفكر الاسطورى ما زالا فاعلين بين قطاعات واسعة من معاصرينا ، الاسطورة تختلف عند القدماء عن الحكاية الدنيوية المسلية التى تضاهى الادب الفكاهى عندنا اليوم. الاسطورة لبيت للتسلية بل هى فى تصور البدائيين حدث مؤسس والتأسيس هو لب موضوعها فما من اسطورة إلا وهى تؤسس لبداية (لأصل) ما : بداية الكون، بداية الحياة ، بداية الموت ، بداية خلق حيوانات الصيد،بداية خلق النباتات ، بداية ظهور مجتمع ، مؤسسة، تقليد ، طقس دينى . هذه البدايات يرويها نص مقدس له كأى نص مقدس عند معتنقيه حرمة وذمام وشعائر صارمة لا تنتهك. فهى لا تتلى إلا فى أوقات معلومة ومقدسة ولا تقرأ إلا ترتيلا ، يقول مرسيا إلياد فى كتابه «مظاهر الاسطورة» Sapectscles Mg thes : «لا يجوز رواية الاسطورة كيفما اتفق . بل ككل نشيد سحرى ينبغى أن يسبقها ترتيل (...)غالبا لا تكفى معرفة أسطورة الأصل بل يجب ترتيلها لابراز ما فيها(..) بترتيلنا لاسطورة الأصل ندع أنفسنا نتشرب الأجواء المقدسة التى حدثت فيها الأحداث الخارقة . زمن الأصل الاسطورى هو زمن قوى لأنه ينفرد بالحضور الفعال والمبدع للكائنات الفو- طبيعية. ترتيلنا للاساطير يجعلنا نعود إلى الزمن البديع (الخارق للعادة) فنغدو بذلك معاصرين على نحو ما للأحداث التى تقصّها الأسطورة فنشارك الآلهة والأبطال حضورهم.

الاسطورة مثلها مثل النصوص المقدسة من المضمون بها على غير أهلها . يقول «إلياد» فى فصل الأسطورة فى كتابه المذكور : «عند قبائل كثيرة لا تتلى الاسطورة بمحضر الأطفال والنساء الذين لم يمروا بالتبدئة Initia-tion (الدخول فى جماعة جديدة والاطلاع على أسرارها) . يتولى الشيوخ الحفاظ إطلاع الأعضاء الجدد، المبتدئين ،على الأساطير (..) الأساطير المقدسة التى لا يجوز للنساء الإطلاع عليها هى تلك التى تتعلق بالكوسمولوجيا

(ميلاد الكون) وخاصة تكد التي تحتوى على شعائر التَّبْدئة (...) الأساطير لاتتلى إلى فى الأوقات المقدسة فى الخريف والشقاء وفى الليل فقط »
أبطال الاسطورة كائنات فَوْ- طبيعية : آلهة أو أنصاف آلهة [أبطال ، أسلاف].

إذا كانت وظيفة العلوم الدقيقة تقديم مشروع إجابة عن سؤال كيف تحدث أو تستغل الظواهر ، فان وظيفة الأسطورة هى الاجابة اليقينية عن سؤال لماذا أحدثت الموجودات من ميلاد الكون الى خلقً حيوان الصيد؟ . بهذه الإجابة اليقينية عن أسئلة البداية تعطى الاسطورة معنى فحياة ناس المجتمعات الاسطورية الذين لا يستطيعون ، نظرا لهشاشة تصوراتهم وذهنياتهم ونفسياتهم ، ان يشعروا بالإمن النفسي الا فى ظل اليقين لمطلق الملازم للسايكولوجيا البدائية او التقليدية التى تتوكأ علي عكاز يقين . اما فى عالم اليقين العلمى المؤقت ، عالم الصيرورة اى تغير الموجودات عبر الزمن ، حيث كل شئ يرسم الاكتشاف يُصاب ذوو النفسية الاسطورية بالقلق ويلوذون بالتعصب اذن بالعنف دفاعا عن اوهامهم اللذيذة - التى يعطون بها لحياتهم معنى . لذلك كان عالم الأسطورة طوال عشرات آلاف عالم الاطمئنان الذى لايعرف التساؤل والشك فالاسطورة تقدم الخبر اليقين عن أصل كل شئ وعن جميع الاحداث المؤسسة التى صاغت نمط حياته وحياته ذاتها . يقول مرسيا الياد: « لا تقص الأساطير بداية خلق العالم (...) بل وايضا جميع الاحداث الأصلية التى جعلت الانسان كما هو الآن : كائنا فانيا وبائسا (...) فناء الانسان ناتج عن حدوث شئ مًّا فى هذا الزمن [زمن البداية] ولو لم تحدث لكانت حياته الآن أبدية (...) اسطورة أصل الموت تقص ما حصل فى هذا الزمن لتفسير السبب الذى جعل الانسان بشرا فانيا ».

يضيف مرسيا إلياد « جل الاساطير القديمة تفسّر الموت بانه حدث تافه ترتب عن اختيار الاسلاف الغبى (...) أرسل الله الحرباء الى الاسلاف حاملة رسالة الخلود كما ارسل لهم فى نفس الوقت العظاءة (السّقاية)حاملة لرسالة الموت. تأخرت الحرباء فى الطريق فسبقتها العظاءة فى تبليغ رسالتها مما أدّى الى دخول الموت الى العالم . انه لو وصف لعبثية الموت من النادر العثور على ما هو أرقى منه لدى الوجوديين الفنرنسيين.(...) انها لمؤثرة الأساطير التى تعيد الموت الى تصرف غيبى من الاسلاف . تقول اسطورة

ميلانزية بان الاسلاف كانوا كلما تقدم بهم العُمر استعادوا شبابهم بارتدائهم جلدا جديداً كما تفعل التعابين. لكن ذات يوم عادت عجوز بعد استرداد شبابها الى بيتها فلم يتعرف عليها ابنها.

تهدئة لخاطره عادت إلى ارتداء جلدها القديم. ،منذ ذلك اليوم أصبح الانسان كائنا فانياً». انها دائما حواء رمز الخطأ والخطيئة التى كتبت على البشرية الشيخوخة والفناء

تحميل المرأة فى معظم الاساطير خطيئة « السقوط » منتشر لدى القبائل الهمجية . تقول الاسطورة البابلية (جلجامش) ان « السماء والارض كانتا فى البدء ملتصقتين » ففتحتهما الالهة لكى تكون على الارض الحياة . غابت المرأة عن هذا الحدث السعيد . اما الاسطورة الافريقية التى تجعل الفصل بين السماء والأرض نذير شؤم على الإنسان فقد جعلت المرأة فى قلب الحدث. تقول اسطورة افريقية: « فى الاصل [فى البداية] كان الله، قّبة السماء ، قريبا جدا من الارض قاب قوسين أو أدنى إلى درجة انه كان يُلمس باليد.كان ذلك عهد السعادة والسلام والرخاء . لكن ذات يوم مرت به امرأة من قبيلة « بول » تحمل على رأسها حملا من الحطب كان يلامس قبة السماء فسألت المرأة الله بأن يرتفع قليلا. فاستجاب لرغبتها مرتفعا عاليا جدا. منذ ذلك اليوم ترك الله الناس فريسة للقوى العلوية وتوقف عن التدخل فى حياتهم» السماء القريبة جدا من الأرض والله القريب جدا من الناس الذين وفرلهم السعادة و السلام والرخاء ألا يذكرنا برمز ألاب الحامى والعطوف . والمرأة التى وضعت حداً للتدخل الربانى فى حياة الناس ورفع حماية الله عنهم ألا تكون ترجمة لا شعورية للام المفترسة التى تحرم رضيعها الظامى من نعمة الثدى وتمتحنه بصدمة الفطام كما يقول التحليل النفسى؟

يواصل مرسيا الياد سرده للاساطير المقارنة التى تفسرلماذا غدا الموت قدراً على الانسان بعد أن كان قبل ذلك خالداً : « تذكرنا أخيراً اسطورة الحرباء والعظاءة بالاسطورة الاندونيسية الجميلة عن الحجرة والموزة القائله ان السماء كانت فى البداية قريبة من الارض وكان من عادة الخالق انزال هدايا مشدودة الى طرف حبل الى الناس. إتفق ذات يوم أن أنزل لهم حجرة بدلا من الهدية. إستهجن الأسلاف صنيعه فراجعوه فى الأمر قائلين : مالنا وهذه الحجرة ؟ إعطنا شيئا أخر. فاستجاب بطلبهم وأنزل لهم بعد أيام

موزة. سروا بالهدية عندئذ سمعوا مناديا من السماء يناديهم: ها أنتم قد إخترتم الموزة فستكون حياتكم كحياتها: عندما تنجب شجرة الموز فسيلتها فانها تموت وكذلك ستموتون ويخلفكم أبناؤكم. لو اخترتم الحجرة لكانت حياتكم كحياتها صَلْدة وخالدة » آه لو أن الفتى حجر يقول طرفه. « مازلنا، يواصل الله ، نعثر على فكرة الخُلود لدى بعض المجتمعات العتيقة التى مازالت مقتنعة بان بوسع الانسان ان يحيا الى الأبد شرط أنْ لا يضع فاعل شرير جداً لحياته. يعنى ذلك أنَّموتا طبيعيا أمر مرفوض.

وكما فقد أسلافنا خلودهم صدفة أو المؤامرة شيطانية كذلك يموت الانسان اليوم ضحية السحرأو الاشباح او مهاجمين فَوْ- طبيعيين » وهكذا يعلمنا تاريخ الاساطير المقارن كيف تؤمِّن هذه الاخيرة للتجمعات البداية المعاصرة تماسكها وتعطى لحياة اهلها معنى عندما تقدم لهم اجوبه يقينية لا عن اسئلة اصلها وحسب بلْ وايضا عن وجودها ومصيرها وتفاصيل حياتها اليومية التى برمجتها الآلهة أو الأسلاف. اساطير القبائل التى مازالت تعيش على الصيد تحدثها عن الكائن العلوى الذى علّم اسلافهم كيف يصيدون وكيف ياكلون كل شئ مقدر سلفاً فى قضاء الحاجة البشرية!

وما الانسان إلا لعبة الآلهة ، الكائنات الفَوْ- طبيعية والاسلاف الذين يقررون له تفاصيل حياته من المهد إلى اللحد ويحفظون له النظام فى الكون ونظام الكون ذاته . تلك هى ذهنية سكان المجتمعات الأسطورية أو ذوى الذهنية الاسطورية من مُعاصرينا يُقيم مرسيا إلياد فى كتابه « مظاهر الاسطورة » توازيا دقيقا للاختلافات النوعية بين البدائى والإنسان الحديث:« إذا كان الإنسان الحديث يرى نفسه نتيجة مجموعة من الاحداث التاريخية ، فان الإنسان « البدائى » يرى ان وجوده كما هو وبالصورة التى هو عليها نتيجة لمجموعة من الاحداث الاسطورية ،الإنسان الحديث يعى أنه من صنع التاريخ والبدائى يتوهم أنه من صنع القوى الفَوْ- طبيعية والاسلاف :« بامكان الإنسان الحديث ، يقول إلياد، تَفْسير حياته الحالية بالطريقة التالية :وجوده كما هو الآن نتيجة مجموعة أحداث لم تغدو ممكنة إلا باكتشاف الزراعة ، تطور الحضارة فى الشرق الاوسط القديم ، فتح الاسكندر الأكبر آسيا، تأسيس اغسطس الأمبراطورية الرومانية ، قلب غاليلو ونيوتى لمفهوم الانسان عن الكون وفتحهما الطريق أمام الاكتشافات

يفقد معناه أى يفقد شرعيته الاسطورية فيغدو بدعة وخلالة.

هذا الرق النفسى للاسلاف بما هو وهم أى قطيعة مع الواقع يحقق به الاحيائى القديم أو المعاصر رغبة جامحة تهزأ بحقائق الواقع وبما هو عصاب استحواذى يدفع دفعا ضحيته إلى تحقيقه مهما بدا عبثيا وكارثيا للوعى المعطل يصف مرسيا إلياد انتظار عبدة الاسلاف فى جزر الاقيانوس والكونغو كالتالى: عباد سفن الشحن فى جزر الاقيانوس يبررون عبادتهم لها بما تقوله أساطيرهم من أن هذه السفن سيعود عليها قريبا اسلافهم من قبورهم حاملين معهم كل ما لذّ وطاب . لتوفير المخازن الكافية التى تسع الثروات الطائلة القادمة مع الاسلاف العائدين من قبورهم .كما يأمرون بقتل حيواناتهم الداجنة التى لن يعودوا فى حاجة إليها .وهم يعتقدون أن أسلافهم لن يحملوا لهم معهم الأغذية وحسب بل واكسير الخلود أيضا فى سنة ١٩٦١ يقول إلياد ،حدث فى الكونغو حدث مشابه : فى إحدى القوى أزال السكان سقوف اكواخهم لتسهيل تساقط سبائك الذهب التى سيلقيها اليهم الأسلاف .وفى قرية أخرى أهملت جميع المسالك إلا المسلك الوحيد المؤدى إلى المقبرة لتسهيل عودة الموتى إليهم محملين بالخيرات »

بما أن سلف الاحيائيين الصالح أعرف بمصالح الأحياء من الأحياء أنفسهم فان رق هؤلاء النفسى حيال موتاهم يحول أنشطتهم القابلة مبدئيا للتعقل إلى شعائر عصابية قهرية لا يسعهم حيالها إلا أن يتمتموا : سمعنا لأسلافنا وأطعنا، يقول مرسيا إلياد : « عندما كان المبشر والانثروبولوجى «ستريهلو» يسأل قبيلة أرنثا الاستوائية عن سبب إقامة بعض الشعائر كان اعضاؤها يحيبونه:

لان اسلافنا أمرونا بذلك (..) فى غينيا الجديدة يرفض أعضاء قبائل الكاى تغيير أنماط حياتهم قائلين لأن الاسلاف كانوا يفعلون ذلك ونحن نتصرف مثلهم :كما روى ذلك منذ خلق الأرض كذلك يجب علينا أن نذبح وكما فعل اسلافنا فى سالف الازمان هكذا يجب علينا أن نفعل اليوم . نفس هذا الدعاء نجده عند الهندوس : علينا أن نفعل ما فعلته الآلهة فى البداية » . يضيف إلياد : « فى قبائل الهنود على النساء أن يجلس على أرجلهن القرفصاء وعلى الرجال أن يجلسوا وأرجلهم متقاطعة أمامهم لان المرأة الأولى (حواء) والرجل قاتل الوحوش (آدم) جلسا بهذه الطريقة فى البدء (..)

فجر الحداثة بما هى سيادة المفهوم العقلانى للعالم على المفهوم الاسطورى ظل الإنسان يلجأ للغة السحر عندما تخونه لغة المنطق وللتفسير الاسطورى للظواهر كلما أعياه التفسير العلمى . مثلا : كان مؤسس العقلانية الحديثة ، ديكارت ، يؤمن بأن قوس قزح معجزة إلهية لا تفسر علميا والحال أن تلميذ الثانوية العامة يعرف اليوم أنه ظاهرة جوية ناتجة عن انكسار ، انعكاس وتبدد الاشعاعات الملونة المكونة لضوء الشمس الأبيض بقطرات المطر! رغم تراجع المعتقدات الاسطورية العتيقة تراجعا هائلا فى المجتمعات الحديثة إلا أنها ما زالت تهيكل بدرجة أو بأخرى المخيال الجمعى المعاصر . مثلا لا حصراً اسطورتا خلق الكون البابلية وخلق الإنسان السومرية اللتان تبناهما سفر التكوين ما زالتا حاضرتين فى وعى عدد هائل من معاصرينا رغم أن علم الفلك الفيزيائى كشف سر ميلاد الكون منذ ١٤ بليون سنة وعلوم ما قبل التاريخ والبيولوجيا أثبتت تطور الحياة إنطلاقا من بكتيريا وحيدة الخلية تكونت فى المحيط البدائى منذ حوالى أربعة بلايين سنة!.

حضور رواسب الفكر الاسطورى ما زالت أيضا مقروءة فى رفض فكرة الزمن الدنيوى أى مفهوم الزمن المستقبلى مما يجعله أسيراً للماضى الذى لا يفتأ يجتر نفسه عودا على بدء كعوة الفصول الرتيبة . زمن بداية اسطورية أو عصر ذهبى يرمز لحقبة تخيلية أو تاريخية تسامت بها الرغبة إلى مرتبة المثال المحتذى والقابل للتكرار فى عصرنا . الدستور الايرانى ينص على أن الولى الفقيه يحكم فى انتظار عودة المهدى المنتظر «عودة الامام الغائب عجل الله فرجه» .

هذه العبادة الصوفية للماضى راسب من رواسب عبادة الاسلاف السحرية- الاحيائية. تاريخ الاديان المقارن يعلمنا أن هذه العبادة قامت فى المجتمع العشائرى حيث تسود الروابط الدموية بين أعضاء العشيرة . بعبادة الأموات كان الاحيائيون وما زالوا يتوهمون أنهم يتصلون باسلافهم الذين بانتقالهم إلى السماء وبتحولهم إلى أرواح صافية غدوا يمتلكون قوة هائلة لا يمتلكها الأحياء مما جعل هؤلاء فى حاجة لحماية الآباء والاجداد فى حياتهم اليومية . فى الصين القديمة ، الاحيائية ، كان كل نشاط ذى معنى : خطوبة ، زواج ، سفر بعيد ، الحصول على مهنة يتطلب حكما تنبيه الاسلاف إليها ليباركوها ويحموها من وراء قبورهم . وكل نشاط لايحاط به الاسلاف علما

يفقد معناه أى يفقد شرعيته الاسطورية فيغدو بدعة وخلالة.

هذا الرق النفسى للاسلاف بما هو وهم أى قطيعة مع الواقع يحقق به الاحيائى القديم أو المعاصر رغبة جامحة تهزأ بحقائق الواقع وبما هو عصاب استحواذى يدفع دفعا ضحيته إلى تحقيقه مهما بدا عبثيا وكارثيا للوعى المعطل يصف مرسيا إلياد انتظار عبدة الاسلاف فى جزر الاقيانوس والكونغو كالتالى: عباد سفن الشحن فى جزر الاقيانوس يبررون عبادتهم لها بما تقوله أساطيرهم من أن هذه السفن سيعود عليها قريبا اسلافهم من قبورهم حاملين معهم كل ما لذّ وطاب . لتوفير المخازن الكافية التى تسع الثروات الطائلة القادمة مع الاسلاف العائدين من قبورهم .كما يأمرون بقتل حيواناتهم الداجنة التى لن يعودوا فى حاجة إليها .وهم يعتقدون أن أسلافهم لن يحملوا لهم معهم الأغذية وحسب بل واكسير الخلود أيضا فى سنة ١٩٦١ يقول إلياد ،حدث فى الكونغو حدث مشابه : فى إحدى القوى أزال السكان سقوف اكواخهم لتسهيل تساقط سبائك الذهب التى سيلقيها اليهم الأسلاف .وفى قرية أخرى أهملت جميع المسالك إلا المسلك الوحيد المؤدى إلى المقبرة لتسهيل عودة الموتى إليهم محملين بالخيرات »

بما أن سلف الاحيائيين الصالح أعرف بمصالح الأحياء من الأحياء أنفسهم فان رق هؤلاء النفسى حيال موتاهم يحول أنشطتهم القابلة مبدئيا للتعقل إلى شعائر عصابية قهرية لا يسعهم حيالها إلا أن يتمتموا : سمعنا لأسلافنا وأطعنا، يقول مرسيا إلياد : «عندما كان المبشر والانثروبولوجى «ستريهلو» يسأل قبيلة أرنتا الاستوائية عن سبب إقامة بعض الشعائر كان اعضاؤها يجيبونه:

لان اسلافنا أمرونا بذلك (..) فى غينيا الجديدة يرفض أعضاء قبائل الكاى تغيير أنماط حياتهم قائلين لأن الاسلاف كانوا يفعلون ذلك ونحن نتصرف مثلهم :كما روى ذلك منذ خلق الأرض كذلك يجب علينا أن نذبح وكما فعل اسلافنا فى سالف الازمان هكذا يجب علينا أن نفعل اليوم . نفس هذا الدعاء نجده عند الهندوس : علينا أن نفعل ما فعلته الآلهة فى البداية » . يضيف إلياد : « فى قبائل الهنود على النساء أن يجلس على أرجلهن القرفصاء وعلى الرجال أن يجلسوا وأرجلهم متقاطعة أمامهم لان المرأة الأولى (حواء) والرجل قاتل الوحوش (آدم) جلسا بهذه الطريقة فى البدء (..)

تقول تقاليد قبيلة كرادجرى الاسترالية عادات القبلية وتصرفاتها أسستها فى« زمن الحلم» كائنات فو- طبيعية مثل طريقة طبخ الحبوب ، صيد الحيوان ، أو الوضع الخاص الذى يجب اتخاذه عند التبول». الا تذكرنا هذه الطقوس القهرية بفرض الحجاب على المرأة فى إيران وإلا جلدت ٧٠ جلدة لسوء ارتداء الحجاب أو ضرورة دخول المرحاض بالرجل اليسرى والمسجد بالرجل اليمنى عند جماعات «التبليغ والدعوة» الأصولية ؟.

سأعطى مثلا أخيرا على خصوبة دراسة وتدريس تاريخ الأديان المقارنة للنشء في المدارس الدينية والجامعات وعلى مدى قدرته التفسيرية لأساطير الحاضر بمقارنتها بأساطير الماضى مما يجعلها فى متناول الوعى النقدى بعد ان كانت لغزا من ألغاز اللاوعى: منذ قيام الجمهورية الإسلامية فى إيران غدت «العادة المتبعة فى السجون ان العذارى يغتصبن قبل تنفيذ حكم الاعدام فيهن . لذلك يكتب حراس السجن أسماء أعضاء فصيلة الاعدام وكذلك اسماء الضباط الحاضرين ثم ينظمون اقتراعا . تحقن العذراء بمهدئ عشية اعدامها والفائز فى الاقتراع يغتصبها ، غداة إعدامها يحرر القاضى الدينى بالسجن شهادة زواج بينها وبين مغتصبها ويرسلها إلى أسرة الضحية مع كيس من الحلوى» (المرأة الايرانية والاصولية بقلم اكراموسادات ميرحسينى رئيسة جامعة النساء الايرانيات من أجل الديمقراطية ص ١٩١ فى كتاب المرأة والعنف فى العالم» دار ارماتان- باريس ١٩٩٥ بالفرنسية).

لماذا هذا الطقس السوريالى أو هذه الدعابة السوداء ؟ لا أحد يدرى . لكن بعد الاطلاع على طقس مماثل لدى قبيلة كولومبية وثنية نعرف السبب . يقول مرسيا إلياد فى الفصل المكرس للاسطورة فى كتابه المذكور أعلاه : «يروى الانثروبولوجى الكولومبى دومولوتيف مراسم دفن فتاة عذراء من قبيلة كوجى الكولومبية . والمراسم جميعها رموز جنسية فالقبر رمز للرحم .. قبل أن يضع الشامان (الكاهن) الفتاة فى القبر يرفعها تسع مرات كرمز للاشهر التسع التى قضتها فى رحم الام ثم يضع معها فى قبرها صدفة حلزون (..) وهى ترمز إلى زوج العذراء المتوفاة لانها عندما تصل إلى العالم الآخر عذراء وكان القبر خاليا من الصدفة فانها تطلب زوجا مما يؤدى إلى موت شاب من القبيلة يلتحق بها ليكون زوجها فى عالم البقاء»!.

حقا ما ألطف وأرق رموز طقوس قبيلة كوجى الوثنية مقارنة بقسوة

شعائر الجمهورية الاسلامية الايرانية!.

من وجان بوتيرو مؤلف الكتاب انخرط فى سلك الرهبانية الدومينيكية وعمره ١٧ عاما . وجهته الرهبانية إلى دراسة الكتاب المقدس ، وبعد تخرجه شرع يدرسه للطلبة . لكنه ،كما يقول ، كان من المستحيل عليه أن يحكم على المستوى التاريخى لبعض مقاطع الكتاب المقدس كالخطيئة الأصلية والطوفان والزوجين الأولين الخ فى التاريخ ، يقول بوتير لابد دائما من شاهد وبدون وثائق أو شاهد لا وجود للتاريخ » والحال انه لا وجود لوثيقة أو شاهد على وقوع الخطيئة الأصلية طالما أن الانسان قد انفصل عن الجد المشترك مع الشمبانزى منذ ثمانية ملايين سنة فأية وثيقة تاريخية يمكن أن تثبت لنا تاريخية الخطيئة الأصلية ؟ فى غياب الوثيقة أو الشاهد كان لابد للمؤرخ من اعتبار مرويات الكتاب المقدس مجرد رموز وأساطير .جاء الدليل على صحة ذلك بالعثور على أساطير بلاد الرافدين التى قضى جان بوتيرو خمسين عاما من عمره وهو يعمل على فك ألغازها فى مكتبه الباريسى.

تضايقت الكنيسة الدومينيكية من أعماله العلمية فى تطبيق حقائق تاريخ الأديان المقارن على الكتاب المقدس فطردته من حظيرتها . لم يؤثر ذلك فى شئ على مواصلة بحوثه لأنه كان يؤمئذ عضوا فى المركز القومى للبحث العلمى . وربما كان عزاؤه عن التكفير والطرد فتح الكوليج دوفرانس أبوابها له . يعلق بوتيرو على قرار كنيسته بطرده :« كمؤرخ كنت أبحث عن الحقيقة الموضوعية (..) لقد ضايقت البعض (الكنيسة) فتم اقصائى . وهذا طبعا تصرف غبى لكنه طبيعى .كان علىّ ان اختار حياة [دينية] أخرى لكن لا رغبة لى فى الإجابة عن الأسئلة الشخصية اننى عالم أشوريات وكفى .

قصة جان يوتيور ومع الانغلاق الدينى هى قصة كل مثقف مع التعصب الدينى الذى يخشى نور العقل كما يخشى الخفاش الظلام أعطى الكلمة الآن للمفكر والمصلح الاسلامى محمد اركون ليفسر للقارئ أهمية أعمال جان بوتيرو على طوال نصف قرن والتى اعطى خلاصتها فى هذا الكتاب:

« هاشم: هل تعتقد أنه لكى يتقدم المسلمون - أو على الأقل لكى يخرجوا من الورطة التى يتخبطون فيها الآن - فانه ينبغى عليهم أن يعيدوا النظر فى العلاقة القديمة بين الإنسان والله ؟ ثم أن يعيدوا النظر فى التصوّر القروسطى عن الله (تصوّر مظلم، قسرى ، مرعب)..

أركون: بالطبع ينبغي أن نفعل هنا ما فعله نيتشة في منهجيته الجنيالوجية عندما كشف عن أصل الأخلاق المسيحية.فلكي تتحرر من شئ ما ينبغي أن تكشف عن أصله أو جذره الأول (أي كيف تشكّل وانبنى لأول مرة). ومن المعلوم أ نالشئ يخفي سره أو أصله بكل الوسائل وذلك لكي يقدّم نفسه بشكل طبيعي ، بدهي ، لا يقبل النقاش . ثم لكي يقدم نفسه وكأنه كان دائماً موجوداً هكذا منذ الأزل، وسوف يظل موجوداً هكذا إلى الأبد . بمعنى آخر ، فإنه يفعل كل شئ لكي يغطي علي لحظة انبثاقه التاريخية، لكي يخفي تاريخيته. هذا ما تفعله كافة العقائد والتصورات الدوغمائية في جميع الأديان . ولذلك فعندما ينهض مفكر جديد ويحاول أن يحفر وينقب عن أصل الأشياء (أي أصل العقائد الراسخة)، فإنه يجد نفسه وكأنه يرتكب فضيحة أو ينتهك المحرمات. كل مفكر كبير كان يمثل فضيحة في عصره، شذوذاً عن القاعدة، خروجاً على المألوف. ولذلك فعندما يتقدم في عملية الحفر أكثر فأكثر ويكاد يقترب من منطقة الحقيقة، فإنه يجد كل القوى المحافظة والتقليدية تنهض في وجهة دفعة واحدة، وذلك لكي تمنعه من الوصول إلى هدفه. والمفكر هنا يُشبه قاضي التحقيق الذي يُحقق في قضية معينة أو في جريمة ما . فاذا كانت هناك قوى كبرى لا مصلحة لها في الكشف عن الحقيقة، فإنها تضر به مباشرة إذا ما تقدم أكثر مما يجب ، اذا ما تجاوز الخط الأحمر.. حذار إذن أن تقترب من الحقائق قبل الأوان!..

مهما يكن من أمر فان المنهجية الجينالوجية (أي الأصولية- النشوئية) تدفع بنا إلى طرح السؤال التالي : كيف ولدت فكرة الإيمان بالله لأول مرة ؟ ينبغي أن نعود هنا إلى كتاب العالم النفسي جان بوتيرو : ولادة فكرة الله الواحد : الكتاب المقدس منظورا إليه من وجهة نظر المؤرخ ، وليس من وجهة نظر المؤمن التقليدي . عندئذ نفهم الفرق بين الرؤية التاريخية لأكثر العقائد رسوخا / والرؤية التبجيلية الموروثة . والبرفسور بوتيرو مختص بحضارة وادي الرافدين ، أي بالحضارة الآشورية والأكادية، والسومرية ، ثم بشكل أخص بالأديان السامية القديمة ، أو أديان الشرق الأوسط القديم . وهي الأديان التي سبقت مباشرة الدين اليهودي وانبثاق فكرة الإله الواحد المتعالي لأول مرة.

ويبين المؤلف عن طريق الأبحاث التاريخية والأركيولوجية المحسوسة

كيف انتقلت البشرية من مرحلة الشرك وتعدد الآلهة / إلى مرحلة الإيمان بالله الواحد الأحد . ولكنه يبين أيضا وفي الوقت ذاته مدى العلاقة المدهشة (حتى في ما يخص التفاصيل) بين حكاية الطوفان -طوفان نوح- الواردة في التوراة ، وبين الحكاية ذاتها كما هي واردة في أسطورة غلغامش السابقة على التوارة بزمن طويل . وهذا دليل واضح على مدى العلاقة الوثيقة بين الأديان التوحيدية / وأديان الشرق الأوسط القديم التي سبقتها . وقد زلزل هذا الكشف الأركيولوجي الهائل الوعي الغربي كله منذ أن توصل العالم الانكليزي ج. سميث إلى ما توصل إليه في أواخر القرن الماضي (أي عام ١٨٧٩ تحديدا) . وهكذا أثبتت تاريخية التوارة بشكل قاطع لا لبس فيه(وهذا حدث لا يقل خطورة عن الثورة الكوبرنيكية في مجال علم الفلك ، بل يزيد..).

(من قضايا في نقد العقل الديني : كيف نفهم الاسلام اليوم) ترجمة وتعليق هاشم صالح.

قد لا يشعر قارئ هذا الكتاب بالغربة عن موضوعه إذا كان قد قرأ كتاب فراس السواح : « مغامرة العقل الأولى : دراسة في الاسطورة » . وهو كتاب يدرس في السنوات الأربع بالجامعة الزيتونية بتونس وقد نراه قريبا يدرس في جامعة القرويين بالمغرب بجامعة الازهر ونتمنى أن يدرسه النشء مع هذا الكتاب في النجف الاشرف وقم وجميع مؤسسات العالم الاسلامي الدينية لانه لا شئ كتاريخ الأديان المقارن لاجتثاث التعصب من رؤوس الشباب ولأن تحديث الدين عبر تحديث الدراسات الدينية هو الشرط الشارط لكل تحديث.

برلين ٢٠/ ٨/ ١٩٩٩

ملاحظة : لم اقرأ ترجمة الكتاب.